

من هنا وهناك

وثنية إخوان الصفاء

النصوص من المعاني ما لا تتفق مع سياق ماورد في الرسائل. ولعل للأستاذ الكاتب عذره في ذلك ، فدراسة رسائل إخوان الصفاء من أشق الدراسات العربية وأعسرها ، والباحث للرسائل في حاجة إلى مقارنة كل النصوص مقارنة دقيقة ، وأن يربط بعضها ببعض ؛ فقد تجد مثلا في الجزء الرابع شرح ما في الجزء الأول . فإذا لم يفتن الباحث إلى طريقة الإخوان في الكتابة ، فقد لا يخرج بنتيجة من دراسته . أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرموز التي يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التأويل الباطني للإسماعيلية . فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الإسماعيلية وإخوان الصفاء ، فمعرفة أسرار الإسماعيلية يؤدنا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء .

ملاحظة ثالثة هي أن بحث الأستاذ جبور قد مليء بالمغالطات الجريئة في

نشر الأستاذ جبور عبد النور في مجلة « الأديب » البيروتية (١) مقالا ، بعنوان « معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء » ، حاول فيه أن يجعل من إخوان الصفاء جماعة اتفقت كلمتهم على هدم الإسلام والرجوع إلى الوثنية القديمة وإلى الوثنية الحرائية بصفة خاصة ، وحاول الكاتب أن يدلل على ذلك كله بما فهمه من بعض نصوص وردت في الرسائل وأشار إلى صفحاتها في الطبعة المصرية .

رجعت إلى النصوص التي ذكرها الكاتب ، ولكنني عجبت أشد العجب من أن الأستاذ جبور لم يكن دقيقاً في نقل النص ؛ فقد عمد إلى تلخيص أجزاء من النص هي التي تتفق مع القضية التي افترضها ، ودفع باقي النص الذي يدحض فروضه ويخالفها . هذا أول ما ألاحظه على بحث الأستاذ جبور . ملاحظة أخرى هي أن الأستاذ سكتب فهم النصوص على هواه هو ، لا كما أرادها إخوان الصفاء ، وحمل

بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها نحواً من عشر سنين في ترتيب أمر الأمة وتحذير الأعداء وجباية الخراج والعشر ومصارعة الأعداء والمهادنة... حتى أحكم أمر الملك « (١) فقد شاء الأستاذ جبور إلا أن يقتطع النص ويأخذ منه ما يتفق مع ما افترضه ؛ فقد اكتفى بأن أشار إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم في الطور المكى كان نبياً بدون سلطان ثم أصبح في الطور المدني نبياً وملكاً . أما ما أدلى به « الإخوان » عن تعليل ذلك ومن أن الله جمع الملك والنبوة لسليان وداود ويوسف ومحمد ، وحرص الإخوان على مصلحة الناس في أن يستند الملك إلى الدين والدين إلى الملك ، إلى غير ذلك من الآراء العديدة التي وردت في الرسائل فقد أبى الأستاذ جبور أن يتحدث عنها أو أن يشير إليها ، بل خرّج هذه النصوص تحريماً يناقض ما جاء في الرسائل وعلق عليها بقوله : « فهم إذن لا يرون أن الدين والدنيا قد اجتمعا في شخص الخليفة ، كما يعتقد سائر المسلمين ، بل يسلمون بأن هذا الاجتماع هو أمر طارىء » . فالرسائل تتحدث عن الأنبياء والأستاذ جبور أبى إلا أن يجعله عن الخلفاء . وإذا فرضنا أن الحديث عن الخلفاء فهل

سبيل الدفاع عن الفروض التي افترضها . نرى ذلك كله واضحاً في هذا البحث المنشور في مجلة « الأديب » . ففي الجزء من البحث الذي جعل عنوانه « فصل الملك عن النبوة » أراد الكاتب أن يوهننا أن إخوان الصفاء هم أول من قال بفصل النبوة عن الملك ، وأنهم يخصون صاحب الشريعة بصفات معينة كما يجعلون للملك خصالاً أخرى ، وفي ذلك تتضح وثنيته ! فلا أدري ما هي الوثنية في ذلك ! ولعل الكاتب لم يقرأ ما ورد في القرآن الكريم عن سليمان ومملكة سبأ ، وكيف فرق القرآن بين الأنبياء وملوك الدنيا ، وقد زخرت كتب التاريخ والتفسير بذلك كله ولم يقل باحث واحد بوثنية هؤلاء المؤرخين والمفسرين . ولكن الفكرة التي اختمرت في عقل الأستاذ جبور جعلت إخوان الصفاء هم أول من فرق بين النبوة والملك ، وبذلك اتضحت في عقائدهم الفكرة الوثنية لقولهم بهذا الرأي . أما قول إخوان الصفاء : « إن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أقام بمكة في أول مبعثه نحواً من اثنتي عشرة سنة يدعو الناس ويعلمهم معالم الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها ثم هاجر

عادلاً حكيماً علياً لا تحفى عليه خافية حتى يعلم أن سائر المسلمين لم يعتقدوا أن الخليفة يجمع الدين والدنيا ، فقد كثرت الفرق الإسلامية لخلافهم في الخليفة .

وفي الفصل الذي سماه الأستاذ جبور « تفضيل المجوسية على اليهودية » نراه قد تعمد تشويه ما جاء في الرسائل ؛ فقد استغل الكاتب المعنى الشائع للمجوسية دون تحقيق عقيدة المجوس ، تحقيقاً علمياً . ولعله إذا قرأ كتاب « الفحص في الملل » لابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . مثلاً لأدرك أن عدداً من الصحابة والتابعين منهم على ابن أبي طالب وسعيد بن المسيب وقتادة وجمهور اصحاب أهل الظاهر قالوا إن المجوس أهل كتاب ، وقد أثبت ابن حزم ذلك في كتب أخرى ذكرها في كتابه هذا (١) ، ومع ذلك لم يأبه الأستاذ جبور بقول إخوان الصفاء عن عقيدة المجوس « بأنه الذي يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه كلهم ، ولا يريد لاحد من الخلق سوءاً لا لمن كان على دينه ويوافقه ، ولا لمن يخالفه ويضاده في مذهبه ، حتى ولو ظلمه وتعدى عليه ؛ لأنه يعلم أن في السماء إلهاً خبيراً فاضلاً

عادلاً حكيماً علياً لا تحفى عليه خافية في أمر خلقه ، وهو يجازى المحسنين باحسانهم ويكافئ المسيئين على إساءاتهم » . (٢) ومن ناحية أخرى لم أجد في الرسائل ما يشير ولو إشارة خفيفة إلى أن القصة رويت لتفضيل المجوسية على اليهودية كما تخيل الكاتب ، إنما رويت القصة للتدليل على أن من اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرته مذهباً في جميع تصرفاته ، فيصير ذلك خلقاً له ، وسجية وعادة يصعب إفلاعه عنها وتركها لها (٣) « وإذا فرضنا وذهبنا إلى أن الاخوان أرادوا التفضيل قائماً هو تفضيل بين شخصيتين لا بين عقيدتين . والغريب أن يذهب الأستاذ الكاتب إلى أن القصة ختمت بتمجيد المجوسية فكانت أفضل الأديان ! بينما ختمت القصة في الرسائل بأن أعيد اليهودى إلى أهلهم مكسوراً » وأن المجوسى حدث الناس بها فحطلوا يعجبون من أمرهما . فواضح جداً الفرق بين الخاتمتين . ولا أدري ما الذى دفع الأستاذ جبور إلى هذا التحريف .

(١) ج ١ ص ٩٢ الطبعة الأولى المصرية سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) الرسائل ج ١ ص ٢٣٧ — (٣) شرحه .

أما في الجزء الذي كتبه بعنوان «هرمس وفيثاغورس» فلعل الكاتب قد تواضع لدرجة جعلتنا نشك في سعة اطلاعه على ما خلفه علماء المسلمين . فالكتب العربية ذكرت أن هرمس هو نبي الله إدريس ، ولم يكن إخوان الصفاء وحدهم هم الذين ذهبوا هذا المذهب ، بل من المؤرخين من يجعل هرمس هو توت إله قدماء المصريين ، ومنهم من يسمى هرمس أخنوخ أو إدريس نبي العبرانيين ، وتكاد الكتب العربية التي سبقت إخوان الصفاء تجمع على أن إدريس (أو هرمس) هو منبع العلم وأول من تحدث في الجواهر العلوية والحركات النجمية^(١) فلا غرابة في أن يتبع إخوان الصفاء رأياً قال به علماء المسلمين قبلهم . وبمنطق الأستاذ جور يجب أن يكون هؤلاء العلماء وثنيين . فإني لا أستطيع أن أقبل استنتاج الكاتب بأن إخوان الصفاء وثنيون لقولهم إن هرمس هو إدريس ، أو قولهم إن فيثاغورس من حران بدلا من بلاد اليونان . قد اعترف إخوان الصفاء مراراً في رسائلهم بأنهم يتبعون الفيثاغوريين في آرائهم ، فكان الأحرى

بالأستاذ جور أن يبحث علاقة الفيثاغوريين بعقيدة إخوان الصفاء ، فإن مثل هذا البحث جدير بأن يتشبه به كاتب بدلا من تعلقه بقولهم إن فيثاغورس من حران ، واستنتاجه أنهم وثنيون حرانيون لذلك .

ويزداد شك الأستاذ الكاتب وحيرته عندما يصل إلى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية ؛ فقد فهم الكاتب أن الاخوان يقومون بجمع شعائر الدين الاسلامي الحنيف فروضه وسننه ، ويعرفون ماحلله الاسلام وما حرّمه فيقومون بهذه ويتركون تلك . ولكن عند الأستاذ الكاتب أن ذلك كله لكم أمرهم عن العامة ! وفي الوقت نفسه يقول إن الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية التي تميز طقوسها بجلاء في عبادة الصائبة لاعتقادهم أنهم أحق الناس بالعبادة الفلسفية الالهية والأخذ لها والتجديد لما دثر منها . ولكن الكاتب لم يبين لنا كيف كان الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية ، هل كانوا يقيمونها خفية أم على مرأى وسماع من الجاهير ؟ الواقع أن الكاتب فهم ذلك لأنه لم يشأ أن يفهم النص بأكمله فاكتفى بجزء من النص وترك أكثره .

(١) الشهرستاني ج ٢ ص ١١٢ (على هامش الفصل لابن حزم) . والقفطي مادة إدريس وهرمس . وطبقات الأمم لصاعد .

الأستاذ جبور إذا أعاد قراءة الرسائل المطبوعة سيجد أنها مفعمة بالاشارة إلى الظاهر والباطن ، وإلى أن العبادة الفلسفية الالهية هي العبادة بالباطن الذى قال به الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء .

وقد بدا للكاتب أن الأفق القائم قد انجلى له لحديث الاخوان عن الأعياد الاسلامية العادية والأعياد التى سماها بالأعياد الفصلية التى كان يتخذها القدساء . ولكن الأمر أبسط مما توهمه ؛ فقد ينجلي له الأفق القائم لو لم يحفل النص أكثر مما يتحملة ، فقد قارن إخوان الصفاء الأعياد (الفصلية) بأعياد المسلمين بقولهم : « وإذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الاسلامية وجدتها موافقة لها (أى للأعياد الفصلية) وذلك أن نبينا عليه السلام سن لأمته فى شريعته ثلاثة أعياد ، فالأول منها عيد الفطر ، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء ، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج فيكون الوفد الشرعى فيه شعثاً غبراً ويحتاج فيه إلى إراقة دم ويكون فرحاً مزوجاً

فى هذا النص من الرسائل إشارة صريحة إلى أن الاخوان علويون ، فهم أقرب الناس إلى النبي الكريم ، وأنهم أولى الناس بحمل شعائر الدين الاسلامى وأخص الناس به . ولكن الكاتب تغاضى عن ذلك كله فى سبيل التبدليل على ما ألزم نفسه به من قروض ، ولو أدى ذلك إلى إهمال النص . وكذلك لم يشأ الكاتب أن يبحث معنى قولهم « العبادة الفلسفية الالهية » واكتفى بأنفسه من عنده بأنها العبادة الوثنية وترك أقوال إخوان الصفاء أنفسهم فى شرح هذه العبادة بقولهم « الاقرار بوحدانية الله » (١) وأن العمل بالعبادة الفلسفية الالهية إيمان ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً والاسلام سابق على الايمان (٢) وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالعبادة الفلسفية الالهية. (٣) ولو اطلع الأستاذ على رسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفاء وقارن بين نصوص الرسائل كلها ، لاستطاع أن يدرك أن المقصود « بالعبادة الفلسفية الالهية » هو ما يعرف عند الاسماعيلية والصوفية بعلم الباطن وأن العبادة الشرعية الناموسية هي علم الظاهر . ولعل

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠١ - (٢) الموضوع السابق - (٣) ج ٤ ص ٣٠٢

بغير نصيب ، فيكون الفرح دون الفرح الأول كفرح الفلاسفة بالعيد الثاني من سنتهم ، إذ كانوا يستقبلون المهجير والرمضاء والسائم وشدة الصيف . واليوم الثالث في السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجة الوداع بغدير خم ، وفرحه بمزوج لأنه خالط ذلك بنكت وغدر ، موافقاً للعيد الثالث الفلسفي المتقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف ، فتناهى حال الثمار وأخذها في النقصان والجفاف . واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة فهو يوم قبض فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رضوان الله ومحل كرامته صلى الله عليه وسلم وإن كان عيداً له لما وعده ربه تعالى بقوله « وللاخرة خير لك من الأولى » فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فئاته عيد له غير أنه مشوب بمصاب أمته وانقطاع الوحي وفقدتهم شخصه الكريم . » (١) ثم ذكر الاخوان أنهم اتخذوا لأنفسهم أعياداً خاصة توافق أيضاً هذه الأعياد الشرعية وهذه الأعياد الفصلية ، وهي خلاصة ما أرادوا ذكره عن الأعياد ، بخلاف ما فهمه الأستاذ جبور . ولا صحة لما ذهب إليه الكاتب من أن الاخوان

« كانوا يصلون بصلاة قدساء اليونان ويدعون بالأدعية الأفلاطونية ويتوسلون بالتوسل الادريسي ويناجون مناجاة الأرسطاطالية » فقد وردت هذه الألوان من العبادة في الرسائل منسوبة إلى قدساء اليونان وأنها عبادة الفلاسفة الالهيين . ولكن فات الأستاذ جبور أن يعرف ما الذي قصد إليه إخوان الصفاء بقولهم : « ولما تمت الفضيلة لواحد من أهله (أى من أهل النبي صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قال مفتخراً : أنا أرسطاطاليس هذه الأمة . » (٢) فمن هذا النص الذي أهمله الأستاذ الكاتب نستطيع أن نذكر أن ذكر أفلاطون وإدريس وأرسطاطاليس في النص السابق رموز أريد بها الأئمة من أهل البيت. (٣)

وقد ذهب الكاتب إلى أن إخوان الصفاء كانوا يحلون القرابين وذبح الحيوانات في الهياكل قرباناً لمن يعبدونه . فهذا القول لا يتفق مع ماورد في الرسائل ، وقد فسر الاخوان قربانهم بقولهم إنه « التقرب بما تقرب به ابراهيم من الكباش المنون به عليه فداء لولده الذي قد رعى في أرض الجنة أربعين خريفاً » . ثم قولهم : « فان تمكنت

(١) ج ٤ ص ٣٠٦ — (٢) ج ٤ ص ٣٠٢

(٣) راجع الرسالة الجامعة لـ اخوان الصفاء .

أن تقرب بكبش رعى في أرض الجنة ولو شبراً فافعل ولا تقعد عنه واجتهد في ذلك . . . » (١) وربما لم يستطع الكاتب أن يفك هذه الرموز أو أن يصل إلى حل هذه الأسرار، ففسرها بما يتفق مع فروضه . ولو كان قد اطلع على كتب التأويل عند الاسماعيلية او على رسالة الجامعة لأدرك أن لهذه الاشارات تأويلاً باطنياً ؛ فالقربان عندهم هو العهد والميثاق ، والكبش هو حجة الإمام أو كبير دعائه ، وأرض الجنة هي أرض الدعوة (٢) ، وبذلك نستطيع أن نفهم أقوال إخوان الصفاء في قربانهم على النحو الذي أرادوه هم ، لا على النحو الذي فهمه الأستاذ الباحث .

أما قوله : « وينتهون من ذلك إلى القول بأن الهياكل التي بناها الفلاسفة هي شبيهة بالهياكل الموجودة في السماء » فهو تحريف لقول إخوان الصفاء « وبنائهم الهياكل في الأرض على مثال ما هي مبنية في السماء » . فكلمة مثال هنا في نص الرسائل لها مدلولها ، المصطلح عليه في الرسائل وفي كتب

الاسماعيلية. ذلك أن الاسماعيلية، ومنهم إخوان الصفاء ، بنوا عقائدهم الباطنية (وهي العبادة الفلسفية الإلهية التي شاء الأستاذ جبور أن يقول إنها العبادة الوثنية) على نظرية خاصة ، أطلقت عليها « نظرية المثل والمثول » (٣) . وتقوم هذه النظرية على أن كل ما خلقه الله من المحسوسات الظاهرة هي مثل، ولها في الباطن مشولات ، وكل ما في الأرض مثل وما في السماء مثول . وبناء على هذه النظرية ، وتأويل الفلاسفة الإلهيين بالأئمة كما سبق القول من قبل ، تقول إن الأئمة مثل والحدود الروحانية مثول ؛ فإيأتيه الأئمة في الأرض من عبادات هي مثل لما يأتيه الحدود الروحانية في السماء . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعوة :

أقصد حمى مثوله دون المثل
ذا إبر النحل وهذا كالعسل
ولا أوافق الأستاذ جبور في قوله
إنهم من عبدة الكواكب السيارة ،
لا أوافقه لسبب بسيط وهو أنه لم يرد

« وينتهون من ذلك إلى القول بأن الهياكل التي بناها الفلاسفة هي شبيهة بالهياكل الموجودة في السماء »
فهو تحريف لقول إخوان الصفاء « وبنائهم الهياكل في الأرض على مثال ما هي مبنية في السماء » . فكلمة مثال هنا في نص الرسائل لها مدلولها ، المصطلح عليه في الرسائل وفي كتب

(١) ج ٤ ص ٣٠٩

(٢) راجع تأويل قصة إبراهيم في كتاب سرائر النطاء لجعفر بن منصور البين ، وتأويل الحج في كتاب تأويل دعائم الاسلام للقاضي النعاز بن محمد ، وفي اجالر المؤيدة لداعي الدعوة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي . وكلها فتوغرافية حمتها جامعة فؤاد لأول بالقاهرة .
(٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي للدعاة (تحت الطبع بشركة الكاتب المصري) .

نص ولا إشارة إلى ذلك في الرسائل . وعدد من الأعداد بل جعلوا لكل وإن كان الأستاذ قد استدلل بقولهم إن الكواكب السيارة لها تأثير في عالم الكون والفساد ، فعمل الكاتب يوافقني على أنه ليس إخوان الصفاء وحدهم الذين قالوا بهذه المقالة ، ولعله قد قرأ ما ورد في مروج الذهب للمسعودي فقد أفرد فصلاً خاصاً بذلك . ووضع الأستاذ الكبير المرحوم نالينو المستشرق الايطالى كتاباً في الفلك عند العرب ، وقد ذكر من قال بتأثير الكواكب في عالم الكون والفساد . وكذلك تقول إن الحرائين - الذين يريد الكاتب أن ينسب إخوان الصفاء إليهم - ليسوا وحدهم الذين ذهبوا هذا المذهب . واستدلال الكاتب بأن الاخوان من المثمنة ليس بصحيح ؛ لأن الناظر في الرسائل يعتقد لأول وهلة أنهم مخمسة لا مثمنة .. والحقيقة كما قلت من قبل أنهم كانوا في هذه الناحية فيثاغوريين لا يرتبطون

بعدد من الأعداد بل جعلوا لكل عدد أصلاً من أصول عقيدتهم (١) . وإذن نستطيع - مطمئنين - أن نرفض هذه الفروض التي افترضها الأستاذ جبور عن وثنية إخوان الصفاء والحرائية ، وأن نعيد ما قاله الباحثون السابقون عن إخوان الصفاء من أنهم من الاسماعيلية . ولعل الأستاذ جبور قد لمح إلى ذلك دون أن يشعر بحديثه عن العلاقة التي بين نصوص الرسائل ونصوص رسائل جابر بن حيان . وأن جابر بن حيان كان على صلة بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشعبة الاثني عشرية والخامس للشعبة الاسماعيلية ، فوجود هذه الصلة بين أقوال إخوان الصفاء وأقوال جابر تدعونا إلى الوقوف طويلاً للبحث عن علاقتهما ببعضهما ببعض وعلاقة الاخوان بالاسماعيلية . وهذا ما أرجو أن أتناوله في مقالات أخرى .

محمد كامل حسين

(١) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .